سرية بئر مَعُونَة[1]

وكانت سرية بئر معونة في صفر من السنة الرابعة للهجرة على رأس أربعة أشهر خلت من غزوة أحد. وكان الباعث على إرسالها ما ذكره أهل العلم والسير: من أن ملاعب الأسنة، «أبو براء، عامر بن مالك بن جعفر» قدم على رسول الله ﷺ المدينة، فعرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام، ودعاه إليه، وأخبره بما له فيه، وما وعد الله المؤمنين من الثواب، وقرأ عليه القرآن فلم يسلم ولم يَبْعُد، وقال: يا «محمد»! إن أمرك هذا الذي تدعوا إليه حسنٌ جميلٌ، فلو بعثت رجالاً من أصحابك إلى أهل نجد فدعَوْهم إلى أمرك رجوت أن يستجيبوا لك، فقال رسول الله ﷺ: (إني أخشى عليهم أهل نجد!)، فقال أبو براء: أنا لهم جار، فابعثهم فليدعوا الناس إلى أمرك، فبعث رسول الله ﷺ «المنذر بن عمرو» أخا بني ساعدة المُعْنِقَ ليموت في أربعين رجلاً من خيرة أصحابه، كالحارث بن الصِّمَّة، وحرام بن ملحان، وعروة بن أسماء بن الصلت، ونافع بن بديل بن ورقاء، وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر الصديق، في رجال من خيار المسلمين، وفي حديث حميد الطويل، عن أنس بن مالك، قال: بعث رسول الله ﷺ، «المنذر بن عمرو» في سبعين راكباً، فساروا حتى نزلوا بئر معونة - وهي أرض بين أرض بني عامر وحَرَّة بني سُلَيْم، كلا البلدين منها قريب، وهي إلى حرة بني سُلَيْم أقرب، فلما نزلوها بعثوا «حرام بن ملحان» بكتاب رسول الله ﷺ إلى «عامر بن الطفيل» فلما أتاه لم ينظر في كتابه، حتى عدا على الرجل فقتله، ثم استصرخ عليهم بني عامر، فأبوا أن يجيبوه إلى ما دعاهم إليه، وقالوا: لن نخفر أبا براء، قد عقد لهم عقداً وجواراً، فاستصرخ عليهم قبائل من

---

(١) انظر ابن هشام (٣/٢٠٤) والطبري (٢/٥٤٦).

بني سُلَيْم: عُصَيَّة، ورِعْلاً، وَذكْوان، فأجابوه إلى ذلك، فخرجوا حتى غشُوا القوم، فأحاطوا بهم في رحالهم، فلما رأوهم أخذوا السيوف، ثم قاتلوهم حتى قتلوا عن آخرهم، إلا كعب بن زيد أخا بني دينار بن النجار، فإنهم تركوه وبه رمقٌ، فارتُثَّ من بين القتلى، فعاش حتى قتل يوم الخندق. وكان في سرح القوم «عمرو بن أمية الضمري، ورجل من الأنصار، أحد بني عمرو بن عوف، فلم ينبئهما بمصاب أصحابهما إلا الطير تحوم على العسكر، فقالا: والله! إن لهذه الطير لشأناً، فأقبلا لينظرا إليه، فإذا القوم في دمائهم، وإذا الخيل التي أصابتهم واقفة، فقال الأنصاري لعمرو بن أمية: ماذا ترى؟ قال: أرى أن نلحق برسول الله ﷺ فنخبره الخبر، فقال الأنصاري: لكني ما كنت لأرغب بنفسي عن موطن قتل فيه «المنذر بن عمرو»، وما كنت لتخبرني عنه الرجال، ثم قاتل القوم حتى قتل، وأخذوا «عمرو بن أمية» أسيراً، فلما أخبرهم أنه من مضر، أطلقه «عامر بن الطفيل» وجَزَّ ناصيته، وأعتقه عن رقبة زعم أنها كانت على أمه.

فخرج «عمرو بن أمية» حتى إذا كان بالقرقرة من صدر قناة، أقبل رجلان من بني عامر حتى نزلا معه في ظل هو فيه، وكان مع العامريَّيْن عقد من رسول الله ﷺ وجوار لم يعلم به «عمرو بن أمية» وقد سألهما حين نزلا: ممن أنتما؟ فقالا: من بني عامر، فأمهلهما حتى إذا ناما عدا عليهما فقتلهما، وهو يرى أنه قد أصاب بهما ثؤرة من بني عامر، بما أصابوا من أصحاب رسول الله ﷺ، فلما قدم «عمرو بن أمية» على رسول الله ﷺ أخبره الخبر، فقال رسول الله ﷺ: (لقد قتلت قتيلين لأَدِيَنَّهما)، ثم قال رسول الله ﷺ: (هذا عمل أبي براء، قد كنت لهذا كارهاً متخوفاً) فبلغ ذلك أبا براء، فشق عليه إخفارُ عامر إيَّاه، وما أصاب أصحاب رسول الله ﷺ بسببه وجواره، وكان فيمن أصيب «عامر بن فهيرة».

وقال محمد بن إسحاق: عن هشام بن عروة، عن أبيه: إن عامر بن الطفيل كان يقول: إن الرجل منهم لما قتل رأيته رُفع بين السماء والأرض حتى رأيت السماء من دونه، قالوا: هو عامر بن فهيرة.

وحَدَّث محمد بن إسحاق: عن أحد بني جعفر، رجل من بني جَبَّار بن سُلْمى بن مالك بن جعفر قال: كان جَبَّار فيمن حضرها ـ أي فيمن حضر يوم بئر معونة ـ يومئذٍ مع عامر، ثم أسلم بعد ذلك. قال: فكان يقول: مما دعاني إلى الإسلام أني طعنت رجلاً منهم يومئذٍ بالرمح بين كتفيه، فنظرت إلى سنان الرمح حين خرج من صدره، فسمعته يقول حين طعنته: فزت والله! قال: فقلت في نفسي: ما فاز؟ أليس قد قتلت الرجل؟ حتى سألت بعد ذلك عن قوله، فقالوا: الشهادة، قال: فقلت: فاز لعمر الله! فقال «حسان بن ثابت» يحرِّض بني أبي البراء على عامر بن الطفيل[1]:

بني أُمِّ البنينَ ألم يرعكم ... وأنتم من ذوائب أهل نجدِ
تهكمُ عامرٍ بأبي بَراءٍ ... ليُخْفِرَه وما خطأ كعمدِ
ألا أبلغ ربيعة ذا المساعي ... فما أحدثتَ في الحدثان بعدي
أبوك أبو الحروب أبو براءٍ ... وخالُك ماجدٌ حكمُ بن سعدِ

وقال كعب بن مالك في قصيدة منها هذه الأبيات[2]:

بني أُمِّ البنين أما سمعتم ... دُعاء المستغيث مع المساءِ؟
وتنويه الصريخ بلى ولكن ... عرفتم أنه صَدْقُ اللقاءِ
أعامر عامر السوءات قِدْماً ... فلا بالعقل فزت ولا السناءِ
أأخفرت النبي وكنت قِدْماً ... إلى السوءات تجري بالعراءِ؟
فلست كجار جار أبي دُوَادٍ ... ولا الأسديِّ جار أبي العلاءِ
ولكن عاركم داء قديمٌ ... وداء الغدر فاعلم شرُّ داءِ

فلما بلغ «ربيعة بن عامر بن أبي البراء» قول «حسان» وقول «كعب»، حمل على «عامر بن الطفيل» فطعنه، فشطب الرمح عن مقتله، فخر عن فرسه، فقال: هذا عمل أبي براء! إن مُتُّ فدمي لعمي ولا يُتبَعَنَّ به، وإن أعش فأرى رأيي فيما أُتِيَ إليَّ

(١) الأبيات في تاريخ الطبري (٢/٥٤٨).
(٢) الأبيات في تاريخ الطبري (٢/٥٤٩).

وعن إسحاق بن أبي طلحة، قال: حدثني أنس بن مالك في أصحاب النبي ﷺ الذين أرسلهم رسول الله ﷺ إلى أهل بئر معونة، قال: لا أدري، أربعين أو سبعين!

وعلى ذلك الماء «عامر بن الطفيل الجعفري»، فخرج أولئك النفر من أصحاب النبي ﷺ الذين بعثوا، حتى أتوا غاراً مشرفاً على الماء قعدوا فيه، ثم قال بعضهم لبعض: أيكم يبلغ رسالة رسول الله ﷺ أهل هذا الماء؟ فقال: أراه ابن ملحان الأنصاري ـ: أنا أبلغ رسالة رسول الله ﷺ، فخرج حتى أتى حواء منهم، فاحتبى أمام البيوت، ثم قال: يا أهل بئر معونة! إني رسولُ رسولِ الله ﷺ إليكم، إني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، فآمنوا بالله ورسوله، فخرج إليه من كسر البيت برمح فضرب به في جنبه حتى خرج من الشق الآخر، فقال: الله أكبر! فزت ورب الكعبة! فاتَّبعوا أثره حتى أتوا أصحابه في الغار، فقتلهم أجمعين «عامر بن الطفيل».

وذكر ابن جرير[1]:

قال إسحاق: حدثني أنس بن مالك: أن الله ﷻ أنزل فيهم قرآناً: ﴿بلغوا عنا قومنا أنا قد لقينا ربنا فرضي عنا ورضينا عنه﴾ ثم نسخت، فرفعت بعدما قرأناه زماناً، وأنزل الله ﷻ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٩، ١٧٠].

(١) تاريخ الطبري (٢/٥٥٠).